صلوات فكر

في محاريب الطبيعة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

٣ — الإسبهان

أيدري ناظر في الطبيعة ماذا يحدث أمامه كل لحظة ؟

الطبيعة تعمل أعمالها العظيمة المتعددة في كل لحظة .. تدير الأجرام ، وتبني الأجسام وتسكب الشعاع، وتسوق الريح، وتوزع الدورات ، وتملأ جميع القوالب ، وتعطي الإذن والمشورة والرأي لكل شيء ...

لا اصطدام ولا تناقض ولا فطور ولا صدوع . تجيب كل حي بلسانه وتكلمه وتوسيه وتوجهه وتلد وتدفن وتضحك وتسول . لا تنام ، ولا تستريح . قلبها لا يقف عن الدوران والنبض .. كل بذرة ، كل بويضة ، كل ورقة ، كل حشرة ، كل ذرة تحتاج إلى عنايتها وإرشادها ، وهي تعطي العناية والمشورة ولا تخطيء !

من يكذبني فليذهب إلى حديقة الحيوان بالقاهرة أو إلى أي حديقة مثلها ، حيث تجتمع فيها نماذج حياة الأرض ، ليرى ويسمع « الجوق » وهو يعزف « أوبرا » الحياة جميعها ...

إن حديقة الحيوان موضع عناية الله البارىء ! إنها عندي معبد أذهب إليه كثيراً بالجسم حين أكون في القاهرة ، وأذهب إليه الآن وأنا في العراق بالروح والفكر لأقف مع الأحياء جميعها أمام الله !

إنها معرض دائم للمنتوجات الحية المجموعة من كل مكان في الأرض . إنها حسنة من حسنات الإنسان لولا أنه فعلها غير مقصودة، بل للهو والمتاع بدون فكر وروح ...

إن الملائكة يتفرجون بها أكثر مما يتفرج الناس ... ليروا فعل ربهم في غير عالمهم ... في عالم الطين ... إنهم يعجبون من تصنيف القلوب والشكول والعقول فيها ... وإن القلوب والطباع هناك أمرها عجيب . الأضداد والأعداء ينظر بعضها إلى بعض من خلال الأقفاص ويتعجب كل منها من هذا الوضع الشاذ في حياته . وترى تناقضاً بين ما في قلوبها وبين حياتها وهي مجموعة ينظر بعضها إلى بعض نظرات متدافعة من خلال القضبان ... قف هناك طويلاً وانظر هيآت الأجسام والنفوس المتعددة ... أنظر مختلف العيون المختلفة وفكر : كم للدنيا من أشكال متعددة عند كل نوع من أنواع ساكنيها ... أنظر نظرات العيون المختلفة واسمع أصوات الحناجر المختلفة واستحضر روح سليمان بن داود مفهم الطير والبهائم والمردة ...

امسح على الجلود والريش والشعر والقشر وشق البطون والجلود وانظر الآلات التي تدور بها هذه الأجسام ...

أفقه شجاعة الأسد وجبن الفأر وحقد الثعبان ووداعة الحمل وشراهة الذئب ومكر الثعلب و .. قد خلق ربك كل هذا من طين يا أخي ! كل قلب من قلوبها يختص بصفة واحدة من الصفات التي جمعها في قلب الإنسان : خلاصة الحياة والأحياء، والابن البكر للطبيعة ...

«حديقة الحيوان» تسمية أولى منها أن يقال «حديقة الحياة»

٤ — على هذا كله ؟

كل يوم تفرش الدنيا بالضياء أمام الإنسان ليسير ، وتسدل عليها أستار الظلام لينام ... وسواء أكان على الأرض قدم تسير أم لم تكن .. وسواء أكان على المهاد جسم ينام أم لم يكن... فإن الآلات الإلهية تدور في دءوب عجيب وعدم اكتراث بالإنسان

فالصباح يشرق على العامل والباهل والتابه والخامل ، والمساء يستر السهران والنائم المكدود ، والربيع والخريف والصيف والشتاء تتداول وجه الأرض ؛ يحيا الإنسان ويموت وهي عاملة ناصبة لا تبالي ...

فالدنيا تدور باطراد ويدور معها كل شيء لا فكر فيه ، ولا يتخلف إلا الإنسان فإنه قد يقف في مكانه حقباً تطول ، أو قد يدور دورة عكسية إلى الخلف ! لأن فيه قوة الاختيار ...

ويخيل للمتأمل أن الدنيا قد دارت « على الفاضي » كثيراً عند ما لم يعمل الإنسان عملاً يقدمه إلى الأمام ، وقد ضاعت قرى كثيرة من عمر الزمان سدى ... ضيعها جهل الإنسان وبطؤه في إدراك وجهة الحياة

فمن المنتفع بالحياة ؟ من الذي خلقت له الحياة ؟

هو الذى لا يضيع شعاع ضوء من أضواء النهار سدى ، ولا قطرة من ماء السماء سدى ، ولا بذرة من بذور الأرض سدى ، ويحتفل احتفالاً ليرى صنعة الله !

هذا الذى يأتى أمامه الإله العطايا فيلقطها فى يقظة ينتفع وينفع ...

هذا الذى عرف قيمة الحياة هبة الله العظمى ! وأحسها إحساساً عميقاً وفكر فيها فكراً ، وأقبل عليها فى شغف إقبال الأطفال على « السينما » ... فرأى كل شىء ، وقرأ كل شىء ، ووضع قلبه وفكره على كل شىء ...

هذا الذى يستعمل مواهبه من الله ليُريه أثرَ صنعته العجيبة فى الإنسان ... وليؤدى دوره كاملاً بين الكائنات كما تؤدى أدوارها بقية جنود الله ...

هذا الذى يفكر ويأكل ويغنى ويندب ويضحك ملء رئتيه ويبكى ملء عينيه ، ويلد ويدفن ويعمل بيده ويمشى برجله : أعنى لا يعطل شيئاً ولا يتمرد ...

هذا الذى لا يغلق حواسه عن جمال دنياه ... ولا يترك باباً من أبواب المعرفة إلا قرعه ودخل منه إلى سر من أسرار الله ...

هذا الذى تتمثل فيه مجموعات الأحياء وينطوى فيه العالم الأكبر ...

كل شىء يؤدى خواص خلقته وتكوينه إلا الإنسان . فقد شذ من خاصته التى له وحده وذهل عنها دهراً طويلاً إلا أفراداً قلائل ...

فتشوا كم من الناس عاشوا كما يريد رب الحياة فى النوع ؟ مليون ؟ ثلاثة ؟ ألف مليون ؟

يا ضيعة الإنسان إن كانت نسبة « العارفين » منه فى جميع الأزمان كنسبة الذين نراهم الآن فى زماننا !

كلا ! سوف لا يدخل إلى الله إلا الذين عرفوه وعرفوا سر صنعته هنا ... أما غيرهم فيذهبون إلى جحيم الحرمان والنسيان . « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون ... »

٥ — صور من الوان الفنام فى المنام

أمامى الآن فى السماء دنيا كاملة من الصور والأشكال ... نسقها الصدفة وحبكها الأوهام ... كلها من وهمى وليس فيها من الحقيقة شىء ... لو أردت عبقرية أى مصور أن تخرج مثلها لعجزت .. إنها دنيا من همسات الظنون وخانيات الأحلام فى نفسى . أنظر إليها ولا أمل كما ينظر الطفل إلى فقاقيع الصابون التى تكون وتنفجر فى لحظة ، وأجد راحة فى نفسى لا تنتهى ، ولا عمق لها

إنى أجد فى الأرض آثار النظام والإحكام والتحديدات والقوالب القاسية التى لا تسمح للخيال بالانطلاق وتكوين مايريد . ولكنى أجد فى فوضى المنام ومزج الصور فيه انطلاقاً وحرية فى تركيب الصور ، وفى ذلك ما يرضى ويشبع حاسة باللانهائية ويجعلنى غير خاضع لمنطق الصور الأرضية وأصول التجسيم

فعالم الأجسام والأحجام والصور الحقيقية فى الأرض هو عندى روايات تمثيلية يمثلها أناس وحيوانات حقيقية ، وعالم أشباح المنام كعالم الصور المتحركة التى يمثلها « ميكى ماوس » وأضرابه ، مما يعطى كل جماد وكل حيوان ونبات روح فكر ورمز وحركة وحياة

ولو كنت مصوراً لأخذت من تهاويل المنام فى ساعة واحدة آلافاً من « رءوس الأفكار » فى أوضاع الأجسام وإخراج البدائع . ولا شك أن هذا هو أصل التماثيل الخرافية الأسطورية التى لم يتقيد صانعوها بما هو كائن حقيقى ولا بالقوالب المعروفة للأجسام . بل ركبوا متناقضات وجمعوا مفارقات وأخرجوها ليرضوا بها نزعات الانطلاق فى النفس الإنسانية زمان طفولتها

فيا عالم الانطلاق ! أنا أنظر إليك سجيناً بأعلالى وأصفادى مربوطاً بالعقل الأرضى والمنطق الإنسانى ... لم يشبع خيالى تنوع الصور الأرضية ولم أقف عند حد . وإنما فى نفسى إدراك عميق تام أن الصور التى عند ربى لا تنتهى

فأطلق اللهم خيالى من العالم « المتبلور » إلى العالم المائع الذى لا أجسام فيه ولا أحجام ... أطلق خيالى ولا تضيعه ! أسعدنى به على القيود مادمت قد حبوتنى هذا النزوع الخالد الدائم إلى الرحلة فى عجائب ما تصنع وما تستطيع أن تصنع ؟ ولا حد لاستطاعتك !